

عالمية الاسلام ... والعولمة المادية

أ. يوسف بلمهدي *

إنه من المهم تحديد مفهوم العولمة من الناحية الاصطلاحية، ومعرفة تطور مدلوله وتاريخ ظهوره وتنوع استعمالاته بحسب الميدان الذي نتعامل معه ونباشره بالدراسة.

ولا يختلف الناس اليوم في أن هذا المصطلح -العولمة- قد نال من الشهرة الإعلامية والعالمية ما لم تنله مصطلحات أخرى، بالكتابة والتأليف والعناية والتحقيق باعتباره ظاهرة من أهم الظواهر التي تصادف الانسان اليوم، غير أنه من الأهم أيضا تجاوز مرحلة هل نحن مع أو ضد هذه الظاهرة؟ والجدل القائم بين كونها خيرا أو شرا؟ إلى مرحلة التعامل مع كونه واقعا ينبغي التعرف عليه ودراسته وكيفية الإفادة منه، والتفاعل معه، مع محاولة رسم الملامح الكبرى للنظام العالمي الجديد، ومن وراء هذه المصطلحات التي أضفت على البشرية هاجسا لا تتخوف منه الدول النامية فحسب بل حتى الدول الأوروبية، سواء

*. أستاذ الشريعة والقانون بمعهد الحقوق- المركز الجامعي محمد بوضياف- المسيلة.

اتفقنا بأن العولمة هي نوع من فرض أو تصدير النمط الأمريكي وقولبة الشعوب الأخرى على وفقه، وتنميط هذا النموذج عالمياً أم لم تنفق ...

فإن الموضوع الذي سأحدث عنه، وأشرف بين أيدي القراء في رسم أفكاره والوقوف على أسرارهِ، تلقيحاً للمعارف، وتنقيحاً للمشارب والمغارف، لا يقف عند الظواهر والأشكال ولكن يتجاوزها إلى كثير من الأبعاد الإنسانية، والمبادئ الأصلية، والخصال النبيلة التي تتفق البشرية على حد أدنى منها، ونحن جزء من هذا العالم المائج بالمتغيرات، والمتخم بالتناقضات ... والذي إن صادفك فيه تشريع عالمي أو دولي عادل، فأول من يجنى عليه في التطبيق هو واضعه، والساعي في مخالفته هو صائغه، وعليه فإننا نستطيع القول حيثئذ : عن أي سلام يتحدث من يصنع الحرب وآلة الدمار ؟ وعن أي حب يتبجح من يزرع الحقد ؟ وعن أي عدالة يراد إقامتها في دول الجنوب "الدول النامية" في حين لم يعرف الظلم بلاداً غيرها، ولم يقم إلا في رحابها.

1. تعريف العولمة

العولمة والكوكبة - في اختيار د. اسماعيل صبري، والكونية - كما يشيع استخدامها السيد ياسين ثلاث كلمات عربية طرحت ترجمة للكلمة الإنجليزية globalization غير أن اللفظ الأول رجحه كثرة الاستعمال في الدلالة على الكلمة المترجمة.¹

ومن الواضح البين أن هذا اللفظ ليس له معنى مجرد، كما هو الحال في التعريفات والحدود الاصطلاحية إذ لو كان كذلك لما ظهرت خطورة هذا المصطلح، بل العولمة في واقع الأمر تحول إجرائي وعملي يطوّر في كل

1. عمرو عبد الكريم، في قضايا العولمة، شركة سما للنشر، ص. 9.

ولهذا الهاجس الفارض لنمط واحد ونموذج فرد على الشعوب بشكل قهري، تفرضه القدرات والإمكانات التي يتمتع بها الغالب، ولهذا التخوف قامت فرنسا وهي من هي تنادي بضرورة حماية الخصوصية الثقافية، وعلى رأسها اللغة الفرنسية خوفا من اكتساح الإنجليزية، وقد أنشأوا كما هو معروف نظام البوليس الإلكتروني للرقابة على من يستعمل غير لغتها في الدوائر الرسمية، وقد فرض سياسيو فرنسا ما أسموه بالاستثناء الثقافي داخل إتفاقيات "الجات" لحماية منتجاتها الثقافية وفي مقدمتها السينما لأن فرنسا سبقت تاريخيا "هوليوود" المعادية لأوروبا وقد جاء في غلاف التاييز الأمريكية يوما "الحرب بين أوروبا وهوليوود" ¹؟

وعليه فمن الواجب التركيز على السبل الحامية لخصوصياتنا من الذوبان، وعدم التشدد بأن العولمة لا تزيدنا إلا رقيا، وأنها لاتنال منا ومن خصوصياتنا شروى فقير، نعم يكون هذا الكلام صحيحا إذا جندنا أنفسنا لحماية هويتنا العربية والاسلامية، ولأنه كما قيل "العولمة إرهاب عنيف لنهاية الخصوصيات من خلال وسائل تكنولوجية وانتشار ثقافة ذات مرجعية تتمثل بالدولة الأقوى مما يجعل ثقافة العولمة عملية تقويض للثقافة الوطنية". ²

وإنني لا أكلف نفسي عناء المقارنة بين الإسلام وعالميته والمادية الغربية وعولمتها، فالبون بينهما شاسع، والفرق واسع، فقد يكون الحديث عن طرف كاشفا للطرف الآخر، وبضدها تتميز الأشياء ... وفي الحقيقة إن الحديث عن عالمية الاسلام يختلف تماما عما يسمى اليوم بالعولمة ولكن ما جعلنا نتناول الموضوع بهذا الشكل أن كثيرا من الناس جعل الدين

1. محمود المنير، العولمة وعالم بلا هوية، ص. 129.

2. يحي راضي، العولمة الثقافية، مجلة الواحة عدد 16، ربيع الأول 2000 م، ص. 158.

الإسلامي كغيره من القوى التاريخية التي أرادت فرض النموذج الإسلامي على العالم، وهذا غير صحيح البتة، انظر ما يقوله أحدهم "إن توظيف المسلمين للدين بالفتوحات التوسعية أخرج هذا التوظيف الإسلام إلى فضاء آخر وحوله من رسالة هداية عقيدية إلى كيان يمارس صنع عولمة خاصة بالقوة وبمختلف وسائل الاحتواء بما في ذلك من فرض اللغة والتقاليد إلى جانب العقيدة"¹، كم في هذا الكلام من المغالطات والافتراء ليس على تعاليم الدين فحسب بل حتى على ممارسة المسلمين لمبادئ الإسلام ؟ إن مثل هذا اللغو هو ما دفعنا إلى تناول الموضوع بهذا العنوان ...

3. عالمية الإسلام

الإسلام هو الدين الخاتم للبشرية جمعاء، والقرآن كتاب للإنسانية كلها، وتعاليم محمد ﷺ تعاليم لكل نفس بشرية لا فرق بين الناس في أي شكل من أشكال التمييز والفرقة، كما سنبين ذلك بعد التدليل على تناول الخطاب الإسلامي -قرآنا وسنة- للمنظومة البشرية بشكل عام، وذلك من خلال الصيغ التي تفيد توجيه الخطاب إلى الناس كافة.

أ - القرآن الكريم : إن بإمكان أي تال للقرآن الكريم أن يقف على الكم الهائل من الآيات القرآنية التي تخاطب المجموعة البشرية دون تمييز بين جنس وجنس، فما أكثر لفظ الناس، الإنسان والإنس وبني آدم والبشر والعالمين، ومن في الأرض... كما في الآيات المباركة التالية تمثيلا لاحصرا :

- «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون» الأعراف (25)

1. الراحة في الموضع ذاته.

- «يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم» الانفطار (6)
- «قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا» الأعراف (158)
- «وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون» الذاريات (56)
- «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» الأنبياء (106)

بل إن السورة التي لا تصح الصلاة إلا بها وهي أم القرآن، والتي يكرّرها المسلمون مرات عديدة في اليوم والليلة فيها هذا الإيحاء «الحمد لله رب العالمين» الفاتحة (1)، تربية للحس العالمي بجميع أبعاده والتي تدل على عظمة الخالق المهين على العالمين جل في علاه. ثم إن أول ما نزل من خمس آيات من سورة العلق تشير إلى البعد الإنساني في الوحي مرتين (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم). ونكتفي بهذه الكوكبة من الآيات الكريمة.

ب - السنة النبوية الشريفة : فيها الكثير من هذه الاستعمالات ذات الدلالات الموحية بعناية الرسول الكريم بكل المجموعة البشرية، فلا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وما أشهر حديث "كلكم لآدم وآدم من تراب"، ولو جئنا إلى أوّل بيانه الرسمي أو خطابه الرسمي ﷺ كما يقال في لغة السياسة، وآخر خطاب له في حجة الوداع لوجدنا ذلك جليا.

فأما الأول ففي أول جمعة له في بني سالم بن عوف يقول : "أما بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم ...¹، وأما في خطبة الوداع فقد تردد لفظ

1. محمد الحضري بك، نور اليقين، تحقيق الجراح، دار الشافعي، دمشق ص. 99.

يا أيّها النَّاسِ مرات عديدة أكتفي منها بهذا المقطع "أيّها النَّاسِ إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد كلّمكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلّا بالتقوى، ألا هل بلغت ؟ اللّهمّ اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب"¹ ...

ولم يبق هذا البعد مجرد نصوص بل تجاوزه إلى الفعل التاريخي والتطبيق الميداني، فقد جسّده المسلمون في حياتهم... وفي مجالات مختلفة كالحكم والعلم والعمل وغيرها، حتى في حالة الطوارئ والحرب، فقد شمل هذا النظام العالمين دون تمييز.

4. خصوصية العالمية الإسلامية

للعالمية كما ينادي بها الإسلام خصوصيات كثيرة، شجعت الإبداع، وأثرت التنوع، ولم تلغ ثقافة قط، بل حافظت على ما هو كائن وأدخلت الإصلاح على ما هو فاسد، وبعثت الروح فيما هو راكد وأبقت للشعوب التي اعتنقت الإسلام أو التي لم تسلم جميع مقدراتها دون مساس أو إقصاء، ولعل أهم ما يميز العالمية في الإسلام ما يلي:²

• كونها ليست قهرية جبرية ولعل أهم ما يتجلى في ذلك عدم الإكراه على الإيمان قال تعالى : «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» الكهف (29)، وقال : «لا إكراه في الدين». البقرة (255)

ولله در القائل بأن الإسلام فرض حرية الاعتقاد، وفرض حرية التفكير كما قال العقاد في كتاب التفكير فريضة إسلامية، ولا يختلف اثنان في مدى تأثير هذه الميزة في مظاهر الحياة وجوهرها، وهذا ما جعل أهل

1. المرجع نفسه، ص. 282، وما بعدها.

2. عمرو عبد الكريم، في قضايا العولمة، ص. 70.

الإنصاف من علماء الغرب يقرون بذلك، قال هاملتون جب (العرب هم أول من ألفوا في الملل والنحل، لأنهم كانوا واسعِي الصدر تجاه العقائد الأخرى، وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية ...)¹.

وقد كتب الشهرستاني وابن حزم في الملل والنحل، كما لا يخفى على باحث في الديانات ما كتبه أبو الريحان البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس الهجري، لم يمَس عواطفهم البتة بل كان سلاحه في ما كتب الحجة والبرهان، وللقارئ الكريم أن يرجع إلى كتب التراجم للصفدي وابن أبي أصيبعة وابن القفطي وياقوت الحموي وغيرها ليجد فيها تراجم كثير من اليهود والنصارى والمجوس وأهل الديانات الأخرى دون تعصب أو حقد يلغي الآخرين..

فَعقيدة التوحيد لم تلزم أحدا بترك معتقده، بل حمت هذا التنوع، فالفهر والإكراه مرفوض قال تعالى : «أَنلِزْمَكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» هود (28)، وقال سبحانه : «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ». الكافرون (6)

♦ تحقيق العدالة العامة والشاملة : فالظالم مقهور وإن كان مسلما، والمظلوم منصور وإن كان كافرا، فالكل أمام الشريعة الإسلامية سواء، بحيث يجب تحقيق العدالة في القول والشهادة والحكم سواء في ذلك الصديق والعدو²، قال الله تعالى : «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى». سورة المائدة (9)

1. أنور الجندي، دراسات إسلامية معاصرة، المكتبة العصرية، بيروت، ط. 1، 1982، ص. 95.

2. عبد الكريم زيدان، موجز الأديان في القرآن، الرسالة بيروت، ط. 1، 1998، ص. 156.

♦ احترام وإبقاء خصوصيات الآخر : وقول الله الصادق «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» الحجرات (13)، ففي الآية ثلاثة مبادئ :

- التسوية في العالمين بين الناس في الكرامة الانسانية وغيرها.

- الحق الثابت في الاختلاف (في اختلاف المشاريع وغيرها شريطة عدم المخالفة للأصول العامة للإسلام).

- الإبقاء على التمايز، فلو كان الخلق على شكل واحد، وقالب فرد لما أمكن التعارف الذي دلّت عليه الآية، فكل فصيل له خصوصية وثقافة ولسان، بل سنة الله في الخلق هي الاختلاف والتنوع قال تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ». فاطر (28 - 27).

5. ملامح النظام العالمي المنشود

لا يمكن حصر ملامح العالمية كما أراها والتي تتشوق البشرية إلى تحقيقها، وتسعى إلى صياغة منظومة متكاملة فيها، تشريعية وتعليمية وصناعية وغيرها من المجالات الحيوية، والتي من شأنها أن تقلل من الفساد في الأرض، وهتك العرض، وتمنع الحروب بالتعامل مع مبدأ السلام العادل والشامل، إذ لا بديل عنه اليوم في استقرار المعمورة ونبذ الفلسفات الداعية إلى حل مشكلات العالم والمجتمع الدولي عن طريق الحرب كما فعل هيجل وغيره... ثم مساندة كل الدعاوى القاضية باستغلال الموارد

الطبيعية ومقدراتها، والاستفادة من خيرات الأرض وأقواتها بشكل يحقق للبشرية رفاهية العيش الرغيد...

إننا لا نزعم المقدرة على إحصاء كل الملامح كما قلت في هذا المقال، لكنه جهد المقل لا دعوى المستقل... فأقول : إن أسس هذه العالمية وملاحمها تنطلق ابتداء من المحاور التالية :

1. البعد الديني والروحي : لقد ذهب كثير من الكتاب إلى أن العولمة شئ مجرد عن العاطفة باعتبار خصوصيتها الإقتصادية المادية، غير أن الواقع يخالف ذلك تماماً، حيث لا يختلف أحد عن مدى قدرة المخزون الروحي والإيمان العميق بالعتيدة والذات، في صناعة المجد وتبوء مقاعد الريادة والسيادة، وتحويل الهزائم إلى نصر.

وليس أدل على ذلك من مثال "ألمانيا" التي خرجت منهكة من الحرب العالمية، بحيث دمرت كل البنى التحتية لهذه الدولة، وقد عرفت السينما العالمية المعروفة بالواقعية الجديدة (new realism) فيلم المخرج الإيطالي "روسيليني" الشهير بعنوان (ألمانيا سنة صفر)... حيث وصف ذلك الواقع الذي آلت إليه ألمانيا، ولكن بقدرة تسمى الإيمان والعزيمة بنت مصانعها بالشموع، وقد نضبت فيها كل ينابيع الخير ما عدا ينبوع الإيمان والأفكار، حتى غدت اليوم ثالث أكبر دولة صناعية في العالم... وليس هناك من شك أن الإيمان الذي نعينه نحن هو الإيمان بديننا الحنيف كما تحدده المصادر الأساسية والأصلية، واعتبار هذا البعد الروحي رقما أساسيا ثابتا في معادلات الحل لأزماتنا التي نعاني منها، وتطأ بكلكها رقابنا، وتثقل به كواهلنا، فالغفلة عن الله والدين والبعد الروحي كارثة لا تعدلها أية كارثة.

وقد وقفت البشرية كلها عند هذا الباب مستسلمة وإن ظهرت في بعض الأحيان لا دينية ملحدة، وإلى هذا يشير بعض الفلاسفة مثل فيخته بأن "الأخلاق من غير دين عبث" إشارة إلى اعتبار الدين عنصرا مهما في صناعة المجتمعات الراقية، ويقول بلوتارك "قد وجدت مدن بلا قصور أو بلا مدارس، أو بلا حصون، ولكن لم توجد أبدا مدن (حضارات) بلا معابد" إشارة إلى المرجعية الدينية مهما كانت، وقد سجل التاريخ بإعجاب ما فعله نهر و بفضل عقيدته في النضال وعزيمته في رفض القهر والظلم والتبعية لبريطانيا بما يسمى بمسيرة الملح ومسيرة القطن... كنوع من أنواع الثورة ضد عولمة مستبدة. "فما أسهل أن تقوم دولة بلا أرض ولكن لا قيام للدولة بلا آله"، كما يضيف بلوتارك... فأني غضاضة تنالنا إذا وضعنا أيدينا في يد الله سبحانه وألقينا الولاء له كما يقول أحدهم :

جلالك في عيني وذكرك في فمي وحبك في قلبي فكيف تغيب ؟

ليس هذا وعظا كما يحلو للبعض أن يسميه بل هو عين الحقيقة التي وقف عليها من يدرس الأحداث بموضوعية وتجرد، وهذا ما دعا الكاتب الفرنسي الكبير أندريه مالرو أن يقول "إن القرن الواحد والعشرين (عصر العولمة) سيكون دينيا أو لا يكون" فلا بقاء للعالم في معزل عن هذا البعد الخطير، وإنك لتعجب من دولة أمريكا صانعة العولمة -الأمركة- كيف تجعل شعار عملتها الخضراء الدولار (في الله نثق in god we trust).

أفلا يجدر بأمة الإيمان والتوحيد أن تثق في الله ولكن من غير تواكل، وأن تعمل لعمارة الأرض من غير تكاسل، ولا أجدي مضطرا إلى وضع بعض المحترزات أو المحددات كأن أقول بأن الدين ليس فرقة مسبحة، وقبوعا في أماكن العبادة، دون علم أو عمل أو يقظة أو تنافس في إعمار الكون، وأن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، لست في حاجة إلى أن أنبه

إلى هذا فقد تبين الرشد من الغي، ثم إن أهل النهى تعنى الإشارة عندهم من العبارة، والتلميح أفصح لديهم من التصريح...

فالإيمان بالله هو الإيمان الباعث على العمل وهو الحصن الأقوى والصيصة الأوقى، (فإن تؤمنوا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) وقديما قال الشاعر :

إذا الله لم يجرسك مما تخافه فلا الدرع مناع ولا السيف قاطع

2. التوازن بين المادية والروحية : وهذا الملمح نابع من سابقه متفرع عنه، غير أنني أفردته بالحديث لأهميته ولأنه جنى سوء الفهم بحقيقة الدين -الذي يشكل كما قلت قطب الرchy في معادلة الصراع وصناعة التاريخ والحضارة- جنى علينا الكثير كما جنى على الحضارة المادية أو العولمة المادية حديثا.... وليس هذا سرا يذاع ولا خيرا يشاع.

فقد حذر علماء الغرب بلدانهم من خطر خواء الروح، والمبالغة في خدمة المادة على حسابها، كما فعل الكاتب الروماني (كونستان جيورجيو) حين ألف روايته الشهيرة في أول الخمسينيات بعنوان "الساعة الخامسة والعشرون" بين فيها كيف أن إنسان الغرب سيصبح عبدا للآلة خاضع لسيطرتها¹، وهذا ما يفسر برودة العلاقات الاجتماعية، وضمور البعد الروحي حتى قال شبنغلر بأن "العلوم الروحية تحولت إلى علوم طبيعية، وصار الناس يبحثون عن مهرج لا عن صديق، وعن نديم لا عن رفيق"²...

1. د. البوطي، أوربة من التقنية إلى الروحانية، دار الفكر المعاصر بيروت، ط. 1، 1999، ص. 21-22، بتصرف.

2. د. عبد الكريم بكار، من أجل انطلاقة حضارية شاملة، الشامية، بيروت، ط. 1، 1999، ص. 192.

وهذا أحد الفروق البارزة الظاهرة، بين عالمية المنهج الإسلامي المتوازن الذي علمنا الأخذ من الدنيا لخدمة الآخرة، والعمل للآخرة لإعمار الدنيا، فلا يجوز تضييع حق النفس بالرهينة المصطنعة، أو الزهد البارد، ولا يجوز كراهية الدنيا بمعنى التخلي عنها بدافع خدمة الروح، «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك». القصص (77).

والناظر في أصل النصرانية المحرفة، يجدها داعية لخدمة الروح نابذة لكل ما هو مادي، والدارس لليهودية لا يكاد يجد ذكرا للآخرة في تلمودها يقول أدولف هتلر : في كتابه - كفاحي - ترجمة لويس الحاج واصفا إياهم "بأن لا مثالية لديهم، وهم لا يتطلعون إلى ما وراء عالمنا هذا، فالتلمود لا يشير بكلمة واحدة إلى العالم الآخر"، ويقول مؤرخ الحضارات ول ديورانت : "إن اليهود قلما يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود"¹، ولذلك تجدهم أحرص الناس على الحياة كما وصفهم القرآن... فكلا المعتقدين لا يمكن أن يصنع منظومة عالمية، وإن ظهرت في قالب العولة فألى زوال تنحدر وإلى خطر مجهول تسير وهذه الخاصية تحقق قطعا التوازن الأخلاقي والحد من الإباحية المهلكة.

وما نقوله على المستوى النظري والنصوص الدينية عندهم يقال أيضا على مستوى التطبيق والممارسة حيث نجد عبادة البنوك ستة أيام في الأسبوع بينما تزار الكنيسة يوم الأحد فحسب كما جاء في كتاب جون جنتر "في داخل أوروبا"، وقد زاد الوضع تدهورا بحيث تذكر الإحصاءات الحديثة أن 5 % فقط من الغربيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة يوم

1. د. القرضاوي، الإسلام حضارة الغد، الرسالة، ط. 1، 2000، ص. 20.

الأحد، مع العلم أن هذا لا يعني بالضرورة التدين¹ وقد ذكر العلامة يوسف القرضاوي نقولا رائعة عن عقلاء الغرب يقرعون ناقوس الخطر، أدعو القارئ إلى الوقوف عليها في كتابه القيم الإسلام حضارة الغد.

3. عالمية إنسانية : إن مراعاة البعد الإنساني واجب، لأن كل المشاريع والبرامج والمنظومات ما جاءت إلا لإسعاده وخدمته، وهذا معنى تسخير الكون للإنسان، وتحريم الفساد بكل أنواعه، حتى لا يجني ذلك على هذا المخلوق المدلل، هذه العالمية تختلف عن عولمة السوبرمان، أو القفز من مرحلة cow boy إلى خيال super boy... فإن الإنسانية أسرة واحدة أبوها آدم وكلها أمام عطاءات الله سواء، وإذا هي أخذت بالسنن فلا محابة لجنس على جنس، ولا فضل لعرق على آخر، ولا مطمع في حضارة تلغي المفهوم الإنساني للإنسان من حيث بعده الروحي، أشواقا وأذواقا، وهذا ما يفسر ورود لفظ الإنسان في القرآن الكريم 63 مرة ولفظ الناس 240 مرة، وألفاظ أخرى تأكيداً لهذا المعنى²، قد يظن البعض أن هذا مجرد إحصاء لا مدلول له، لا ليس الأمر كذلك، بل هذا ما دفع آرنست رينان (1823-1892م) أن يقول "الإسلام هو دين الإنسان"³ لذا يكاد يجمع العالم الواعي على رفض إنسانية نيتشه (السوبرمان) الذي لا يعبر عن جوهر الإنسان بقدر ما يعبر عن المادية الداروينية الصراعية⁴، وهذا ما دعا الحفل المقام لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي في إصداره تقرير التنمية البشرية (1999) أن يتبنى

1. د. القرضاوي، الإسلام حضارة الغد، الرسالة، ط. 1، 2000، ص. 20.

2. د. القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، الشهاب، الجزائر، ص. 59.

3. د. عماد الدين الخليل، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، الرسالة، ط. 1، 1997، ص. 33.

4. عمرو عبد الكريم، في قضايا العولمة، ص. 61.

شعاره هذا العام "إضفاء وجه إنساني على العولمة". وذلك لشعورهم بالخطر المحدق إذا أهمل الإنسان في كل ما يحدث عالميا.

إن المشاريع التي تهمل الإنسان أو تهينه، والأفكار التي تدعو إلى احتقار أي جنس بشري بدعوى أن دما خير من دم، أو أن لونا بشريا خير من لون، سيسلط عليها داء من جنس ما تعامل به الآخرين، على نحو ما تفعل اليهودية (التي تلبس أقنعة متعددة منها العولمة)، والتي يعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار دون سواهم، فقد سلط عليها القدر جزاء من جنس العمل حيث أبادهم هتلر بعقيدة النازية السامية : وقديما قيل :

لكل شئ آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

ولئن كانت المعادلة الثلاثية : التراب + الزمن + الإنسان هي الأسس المنتجة للحضارة فأهم ما فيها هو الإنسان، إذ قد يكون وحشا ضاريا يعدو على المكان فيفسده، كما يحدث في مجال البيئة، أو يعتدي على غير ما يملك كما هو الحال في كثير من الحروب والتراعات والذي لم تخلو منه حتى بعض البلدان العربية والإسلامية، كما أن الإنسان بإمكانه أن يضيع الحياة والزمن، فلا يكون هذا المعلم سوى روتيننا قاتلا بحياة يتشوق إلى قتله.

وقد جاء في علم الميثولوجيا (الرومانية اليونانية) والتي لا أسمح لنفسي أن أقارن بين ما كان يتمتع به أفلاطون الحالم -الذي انتشى في مثالية هي عند البشرية سفاهة ما بعدها سفاهة- وبما دعت إليه العملية الإسلامية، حيث دعا إلى قتل كل المعوقين والعميان وأصحاب العاهات إما بالحرق أو الغرق أو يلقوا من شاهق لأنهم يمثلون لعنة السماء، وغضب الإله... فأين هذا من الراتب الذي جعلته خزينة الدولة المسلمة لكل أعمى حيث

يقوده موظف يصرف له ؟ كما أنني لا أستطيع إدراك حجم الكارثة التي لو قدر لها أن تكون عولمة بهذا البعد الروماني أو اليوناني في العالم برأي أفلاطون والإحصاءات في اليونيسيف تقول أن عدد المعوقين في العالم 500 مليون معاق... فأين هذا من دين نشر تعاليم عالمية أزال الرق وحمّت حقوق الإنسان فيما هو مشهور بالكليات الخمس، من مرحلة النظفة إلى أن يوارى الثرى، بل قد حمته الشريعة ميتا سواء في الحرب أو في الأحوال العادية، ولا مطمع لأحد أن ينال منها أبدا... وإنك لا تعجب حين تقرأ عن "سارتر" أنه صَنّف المعمورة قسمين عندما كان تعداد سكانها ثلاثة مليارات، قال نصف مليار من البشر وملياران ونصف من السكان،¹ لعله خجل أن يقول من الحيوانات !

4. عالمية العلوم والمعارف : العلم لا وطن له ولا يمكن أن يحتكره شعب عن غيره بل كل له الحق في التعلم والتعليم، حيث لم يجد الرسول ﷺ بدا أن يحارب أمية أمته يوم أسر بيدر قراء من قريش، أن يدعوهم لكي يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، فإذا حذقوا ذلك فهو لهم فداء، كما أننا لم نمنع غيرنا من التعلم يوم غصت جامعات قرطبة وغيرها بطلاب العلم وخطاب المعرفة من الفرنجة وغيرهم، بل ليس هذا فحسب فقد أتيح لكل واحد أن يضيف أو يبدع دونما حرج، طالما أن الأصول محفوظة لا يخشى عليها التغيير أو التبديل فابن باجه فرنجي قطعاً، وابن البناء البغدادي بربري في الأغلب، وابن سينا والفراي تركيان، والخوارزمي والغزالي فارسيان، وقد حكم الدنيا تشريع منبثق عن أحد المذاهب الأربعة (الحنفي) دهرًا طويلاً ومؤسسه أبو حنيفة الفارسي ولا

1. د. عبد الكريم بكار، من أجل انطلاقة حضارية شاملة، ص. 47.

نزيديك عجباً عندما نذكر الموالى من الفقهاء والمحدثين وعلى رأسهم البخاري، وأهل اللغة على رأسهم سيوييه، وفي البلاغة الزمخشري... وأهل القبائل عندنا (ابن معطي والأجرومي في علوم العربية ...

فالعلم علم... توحد أهله تحت قبة الإسلام مهما كانت أجناسهم فصاروا مسلمين كما مثلنا، أو بقوا على ما هم عليه من ديانات أخرى، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو حري بها.

ويكفيك شاهداً على ذلك ما فكر فيه المأمون في حربه مع ملك الروم "توفيل ثيو فيلوس" عندما هزمه في الميدان أن يطلب بدل الأرض والغرامة المالية، كتب الفلسفة والعلم التي كانت مطمورة في السرايب عندهم...¹

يقول لوثر ب ستودارد في حاضر العلم الإسلامي "إن العرب موئل الإسلام ما كانوا أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستيلاء والتدمير بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة عظيمة الأخلاق تواقة إلى ارتشاف العلوم"²، فليس هذا غريباً بل هي أمة اقرأ.

ولكن مع الأسف الشديد فقد أصبحنا لا نقرأ، في حين تقول الإحصائيات³ عن الغرب أن :

25 % يقرؤون كتاباً واحداً كل شهر.

50 % يقرؤون كتاباً واحداً كل عام.

65 % يقرؤون مجلة أسبوعية بانتظام.

80 % يقرؤون صحيفة يومية بانتظام.

1. البصرة، دورية تصدر عن مركز البحوث والدراسات الإنسانية، عدد 5، دار الخللونية 2000، ص. 126.

2. البصرة الموضوع ذاته، ص. 126، لصاحب هذا المقال.

3. د. عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار الشامية، ط. 1، 1999، ص. 148.

والباقي يأخذ ثقافته عبر التلفاز والراديو وغيرها من وسائل الاعلام، وقد بلغت نسبة الاستعارة في المكتبات البريطانية العامة (650 مليون كتاب سنويا)..

ومما يذكر في هذا المجال أن العولمة بما تطرحه من نظم احتكارية اقتصادية فإنها تسعى كذلك إلى احتكار المعلومات، وعصرنا هذا سلاحه وقوته في كمية ما يملك من معلومات لذا نجد النداءات الداعية إلى حماية براعة الاختراع وحماية الإنتاج العلمي من الاقتباس كي تلجئ الدول النامية ماليا إلى الإفلاس أو تبني مبادئها وتطأطئ الرأس...

وإن تخلفنا في هذا المجال يجعلنا نبتلع الحسرة جمرًا يتلظى وذلك عندما نعرف أن ميزانية الإعلام في بعض الدول تساوي تمامًا ميزانية الدفاع، ولقد جاء في إحصائيات قديمة (1986) أن اقتصاد الإعلام في الغرب والاتصالات يساوي 11865 بليون دولار، منها 515 بليون د. لأمريكا و267 بليون د. للجماعات الأوربية و253 بليون د. لليابان و150 بليون د. للباقيين، مما جعل الأمم المتحدة تدعو إلى قيام نظام إعلامي عادل يحقق التوازن بين الشمال والجنوب¹، وكيف يحقق التوازن والحال كأنها تنطق بالحق قائلة :

يا أعدل الناس إلا في محاكمتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

5. الأصالة والمعاصرة

لا ينبغي أن يكون حديثنا عن التاريخ كشاعر يقف على طلل فيبكي، أو كمثل قاص يروي لنا الأحداث ويحكي، ولا يجوز اتخاذ

1. محمود المنير، العولمة وعالم بلا هوية، ص. 131.

"التاريخ" مجلس منادمة ومسامرة، نفترق فيها على نشوة عارضة أو نزوة عابرة، بل ينبغي الدراسة الواعية لأسباب انتصارنا وانكسارنا، والبحث عن الجذور التي ارتضعنا منها ألبان القوة، وتشرفنا بها بقيادة العالم، كما قال ديورانت "لقد ظل الإسلام خمسة قرون (700 - 1200) تزعم العالم كله في القوة والنظام، وبسطة الملك وجميل الطباع، والأخلاق وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والآداب والبحث العلمي، والعلوم والطب والفلسفة.... إلخ،¹ أو كما قالت الدكتورة لورافيشيا فاغليري وهي تصف الإسلام بالماء النجوع الذي يروي النفوس العطشى قبل الأرض الظامئة "فإذا فيض جديد من حياة عارمة، يتدفق في عروق الشعوب الحائرة، لقد تجلى أمام عيون العالم المندهشة دين جديد بسيط سهل يخاطب العقل والقلب جميعاً..² إن هذه الأوصاف المنصفة من غيرنا تدعونا إلى النظر بجد إلى جذورنا ثم نندفع إلى استشراف المستقبل والإعداد له في حركة علمية في كل المجالات، ومنها حركة الإجهاد التشريعي النابع من ذاتنا... فحرام أن نغفل الدراسات المستقبلية ونحن الذين قال لهم القرآن ﴿ولتنتظر نفس ما قدمت لغد﴾ الحشر (18)، ونحن الذين نقرأ في القرآن قصة سيدنا يوسف عليه السلام حيث خطط لخمسة عشر عاماً لدولة مصر بما يكفل لها اقتصادها وحياتها.

والرسول الكريم ﷺ يأمر أصحابه بقوله "أحصوا لي كم يلفظ الإسلام" (البخاري) عن حذيفة، كل هذا حتى يعرفنا كيفية الإعداد للمستقبل والتخطيط له، على خلاف ما كانت تأمر به الكتب المقدسة المنحرفة؟

1. تاريخ الحضارة.

2. د. القرضاوي، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، دار الشروق مصر، ط. 2، 1998، ص. 185 بتصرف.

كالعهد القديم حيث جاء فيه "أن أحد الأنبياء من بني إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فترلت عقوبة سماوية لأنه تحدى القدر¹ !

فمالنا لا نفعل مثل غيرنا اليوم كما نجد في السويد وزارة تابعة لرئيس الوزراء اهتمامها بالمستقبل منذ 1973 وقد بلغت المؤسسات المتخصصة في الدراسات المستقبلية في أمريكا وحدها (600) مؤسسة، وفي المناهج التربوية ومقررات التعليم تشكل الدراسات المستقبلية 415 مقرا دراسيا موزعة على 18 ولاية أمريكية² (29) ... فأين نحن من هذا كله ؟

وما قيمة أن نتغنى بالماضي ونغفل المستقبل ؟ وما قيمة الحديث عن البداية وإهمال النهاية، وقديما قالوا :

"المرء حيث يثبت لا حيث ينبت"

1. د. عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية، ص. 136.

2. وقد اعتمدنا كتباً أخرى أذكرها لتمام الفائدة — ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، د. برهان غليون ود. سمير أمين عن دار الفكر، ط. 1، 1999. — عالمية الإسلام ومادية العولمة، منشورات جمعية حلقات الفكر والدراسات الإسلامية، بيروت، 1999. — الإسلام والعولمة، محمد إبراهيم مبروك وللمجموعة من الأساتذة، عن الدار القومية العربية.